محاولات في فهم التاريخ المعاصر - ٢ -

مراحل اليقظة العربية الأخيرة

بقلم عبد اللطيف سرارة

حاولت في البحث السابق (١) ، ان اكشف العيوب التي تقع عليها العين في حياة العرب الراهنة ، وان ارد تلك العيوب الى اصولها واسبابها الحقيقية المباشرة . ولكن هذه الحياة ليست « عيوبا » كلها كما يتصور المتشائمون ، ويصورها المغرضون !!وواقعها الراهن لا يعطي ،في ظاهره، صورتها الكاملة ، فهي كأي حياة ، قابلة للتغير والتبدل مع الزمن ، وفيها من الامكانات والطاقات المادية والمعنوية ما لا نجده في حيوات كثير من الشعوب والامم . وذلك هو بالضبط ، ما تتميز به هذه الحقيقة من تاريخنا ، بل هو ما يتميز به تاريخ الوطن العربي في شتى بقاعه واقطاره ، من اقدم العصور الى يومنا هذا .

ولقد كانت غفلة العرب عميقة مدمرة ، عن امكاناتهم وطاقاتهم ، منذ تدخل الاتراك في شؤونهم ، وتمكنوا من التحكم في اداراتهم العامة على يد المتوكل ، ذلك الخليفة الذي قاوم حرية الفكر ، وقضى على سلطان العقل ، وسمح للشعوبيين الذين لم يدركوا شيئا من اصالة العروبة ، ولا تفهموا روح الدين الاسلامي الذي اعتنقوه ، وكانوا من بعد ، اداة رجعية وانحطاط وتقهقر ، في آسيا كلها وافريقيا ، اذ تأخر العالم بجملته ، حين احتلوا هذه المنطقة الحساسة منه ، عن ركب الحضارة ، ووقف نموه الثقافي والاقتصادي ، وتوترت العلاقات بين الشعوب والمجتمعات ، واستمرت تتوتر وتضطرب ، الى ان وقعت اكبر نكسة حضارية شهدها تاريخ الانسانية ، ونعني بها الحروب الصليبية .

غفل العرب اذن طيلة امتداد الظل التركي – وهو الذي كان ظلا عسكريا خالصا ، لا يد فيه لنسمة روحية ، ولا لنغمة ثقافية – عن حقوقهم السياسية في اول درجة ، ثم عن تاريخهم وحضارتهم وامكاناتهم ، ثم عن كرامتهم ، ثم اخيرا عن قيمتهم في الحياة الدولية من جميع الوجوه والجهات .

وكانت تلك الغفلة الطويلة ، العميقة ، المدمرة ، الثغرة الكبرى التي نفذت منها العيوب التي فصلنا امرها سابقا ، الى الحياة العربية .

في هذه الاثناء ، اثناء الطغيان العسكري العثماني وسبات الروح العربية ، اخذت اوربا تجيش وتتوثب وتؤاتيها الفرص للاندفاع في طرق الاكتشاف والاختراع والفتح والسيطرة . فقد افادت من الحروب الصليبية التي خاضتها في هذه المنطقة ، اكثر من فكرة ، واستشرفت اكثر من افق حضاري ، وطفقت تقتدي بالعرب في نبش كنوز اثينا الفكرية ودرس حكمة فارس والهند والصين ، وتقتدي بالترك في اعتماد البطش والقوة العسكرية اساسا للدول ، واقتدت اخيرا بروما في عهودها الوثنية ، فراحت تستقي من تراثها الواسع العريض في تجييش الجيوش واخضاع الشعوب وتأسيس الامبراطوريات .

وكان من الطبيعي ان يتشوف الاوربيون الى احتلال هذه المنطقة التي اطلقوا عليها اسم « الشرق الادنى » تأمينا لمواصلاتهم ، واشباعا لرغباتهم في الفتح والسيطرة والاستثمار ، فنشأت عن ذلك « المسألة الشرقية » التي تفيض التواريخ في ذكرها ، وتسرد ما نجم عنها من معارك واحداث وافكار .

وكان اكبر ما نجم عن المسألة الشرقية من اتجاهات سياسية اختلاف القوميات الاوروبية فيما بينها ، وتنازعها على استعمار الشرق الادنى ، فكان الانجليز والفرنسيس يمانعون روسيا القيصرية في النفاذ الى البحر المتوسط ، ويقفون مع تركيا ضد الحركات التحررية او الانفصالية التي كانت تظهر هنا وهناك في بعض الاقطار العربية . وعلى هذا النحو من سياسة التوازن بين الدول الاستعمارية في اوربا ، استطاعت السلطنة العثمانية ان تحتفظ بوجودها وان كان مريضا .

وعندما وقعت الحرب الاولى انحازت تركيا الى المانيا ضد الروس والفرنسيين والانكليز ، فاطبقت عليها الدول الاوربية ، واختل التوازن الدولي الذي كان قائما من قبل ولكن هذه المرة على حسابها .

وحسب العرب ، خلال تلك الحرب ان الدول الغربية صادقة فيما تدعي من عمل على نشر الديمقراطية ، وفية لتعهداتها ، مؤمنة بحق الشعوب في تقرير مصيرها،وجاءت بنود وودرو ولسن الاميركي تؤيد هذا الحسبان ، وتدعمه بالبرهان القاطع ، حتى اذا القت الحرب اوزارها ، وانتهت بانتصار الغرب وخذلان تركيا والمانيا ، انكشفت المخبأت ، وفشت اوربا أسرارها فاذا فيها معاهدة سايكس – بيكو ، ووعد بلفور ! وكانت الصدمة من العنف والقسوة بمنزلة استيقظ معها العرب على واقعهم الاليم ، وتفتحت عيونهم وعقولهم على اوربا التي كانوا يجدون فيها رمز المدنية ، وزهرة الحضارة الانسانية ، وارتفعت الاصوات مدوية تجأر

(١) « الاداب » العدد الثاني عشر (ديسمبر) ١٩٥٨

بالاحتجاج والشكوى والغضب الذي لا يحد ولا يعد . وسمع الناس آنذاك الامير شكيب ارسلان ينشد :

ليس في الغرب بنو آدم بل فيه ذئاب !

كما سمعوا الشاعر القروي ينادي :

ما في اوربة مخلص لبلادكم

الكل اعداء الشآم فكنسوا .

تلك هي اليقظة العربية الاولى .

***

افاقت البلاد العربية ، في اعقاب الحرب الاولى ، على نفاق الاوربيين وغدرهم ، فوعد بلفور يشير الى انحلال اساسي في الخلق الاوربي ، واذا انت استعدت بذاكرتك الظروف التي احاطت به لحظة اعطائه ، والملابسات التي رافقته من تحالف مع العرب ، الى تصريحات مدوية في شأن حرية الامم والشعوب ، الى استنفار لجميع القوى المخيرة في العالم للقضاء على قوات البغي والعدوان ، ادركت غور اللعبة الشائنة التي ذهبت فلسطين ضحيتها ، وبالتالي آمال الاقطار العربية كلها في التحرر والتوحد .

اما معاهدة سايكس ـ بيكو فلم يكن المراد منها سوى تراضي الدول الغربية فيما بينها ، وتجزئة القوى العربية بحيث لا تقوى يوما ما على مقاومة النفوذ الاوربي في ارضها . ولذلك يصح اعتبارها كاشفة ما امامها ، موضحة للنيات التي انطوى عليها الاوربيون تجاه مستقبل العرب .

صدر حديثا :

زينب ملكة تدمر

ـ شغف بالمعالي ليس له حد

ـ وطموح الى المجد لا يحد

ـ وعظمة تصغر عندها عظمة الملوك

ـ اعصاب من فولاذ لا تعرف الخور

ـ وجمال ساحر تزيده العفة جمالا وجلالا

كل ذلك تقرأه في هذه الرواية الاخاذة

التي اصدرتها اخيرا

دار الاندلس ـ بيروت

وعدبلفور القى النورعلى اخلاق الغرب ،ومعاهدة سايكس بيكو كشفت سياسة الغرب في هذه المنطقة ، ولم يبق من سبيل الى اخفاء هذهالسياسة ولا من وسيلة الى تمويه تلك الاخلاق .

بيد ان اتضاح ما يخفى من سياسة وخلق لا يرفع درجة الوعي لدى الجماهير ، ولا يجعلها في سعة من حياتها المضطربة ، المعذبة ، المرهقة ، ولا يضع في يدها من الامكانات ما يتيح لها ان تتقي اضرار تلك السياسة التي رأتها بعد فوات الاوان ، ولا ما تدفع به مساوىء تلك الاخلاق التي عرفتها ولات حين معرفة !

لذلك ظلت اليقظة العربية الاولى مشوبة بكثير من الكسل الروحي ، والنعاس الاجتماعي ، والبلبلة الفكرية ، فكانت معزوفة الناس في فترة ما بين الحربين لدى الشعوب التي غلبتها اوربا على امرها ، القول الشائع : « العين بصيرة ، واليد قصيرة » والمثل الاخر « العين لا تقاوم مخرزا »

ومرد ذلك الكسل الروحي الى توزع النفوس بين الترقب والتشاؤم ، وانتقال المجتمعات العربية من التفكير الديني الصرف الى التحسس بالوطنية والقومية ، ثم الى جهل السواد الاعظم بالتاريخ الحديث ، وضآلة موارده الاقتصادية والثقافية فلم يكن ينشط لمراس الحياة السياسية غير فئة من الاقطاعيين والوجهاء وذوي الثراء ، وهم طبقة « الافندية » الذين ورثوا هذا اللقب وما فوقه من القاب عند تركيا العثمانية .

اما النعاس الاجتماعي فقد نشأ عن احتجاز المرأة في منزلها ، والحيلولة دون تقدمها ، واخذها عنوة واقتسارا بالحشمة المصطنعة ، فلم يكن للاندية الادبية ان تزدهر ، ولا للحفلات الشعبية ان تتنور ، ولا لمرابع الانس ان تثمر وتتنوع ، ولا للصحف ان تزداد وتنتشر ، فظلت المجتمعات العربية الا اقلها ، غافلة عن الحياة وما يصطخب فيها ، وعن الفن والادب والعلم .

واما البلبلة الفكرية فهذه قصد اليها الغربيون ، وجهدوا كثيرا في بثها ،وعمدوا في مصر والعراق وليبيا والسودان ، الى انشاء الاحزاب والايقاع فيما بينها ، وراحوا يبثون من الافكار والنظريات ما يوهن العزائم ، ويشق المواطنين. ويجعل البلاد كلها فريسة التطاحن الحزبي ، والتضارب العقائدي ، فخلقوا الفرعونية في مصر ، والفينيقية في لبنان ، والعنصرية في العراق ، ولم يتركوا وسيلة من وسائل التفرقة في لبنان وسوريا الا تذرعوا بها وجربوها ، حتى تحولت البلاد العربية الى ميدان عراك تقتتل فيه النزعات المتباينة ، والمذاهب المتغايرة .

هذه الشوائب التي رافقت يقظة العرب الاولى ، كانت تتلاشى تدريجيا ، لما تحلت به اليقظة من زخم سياسي هائل تمثل في انتفاضات الشعب الفلسطيني المتكررة وثورات سوريا على الانتداب الفرنسي ، وتمردات العراق الجائحة واخيرا في نهضة مصر الاجتماعية والوطنية ، عهد سعد زغلول .

كانت مصر قدحققت ضربا من التقدم الثقافي والاجتماعي سبقت به سائر الاقطار العربية ، اذ لم تكن حديثة العهد باوربا والاعيبها السياسية ونشاطها المدني ، كما كان شأن اخواتها العربيات ، ولذا استطاعت ــ وهي التي مرت بالتجربة ــ ان تفهم الغرب قبل غيرها ، وان تعي اتجاهاته وآراءه وعيا كيانيا . فكان أن تخلصت الى حد غير بعيد من الكسل الروحي ، والنعاس الاجتماعي ، بيد ان البلبلة الفكرية ظلت تظهر عليها باعراض واضحة الى ان قضت على النظام الملكي في ثورتها الاخيرة .

وسرى الوعي في النواحي الاجتماعية والثقافية والوطنية من مصر الى غيرها من بلاد العرب ، وبدات التيارات الفكرية العالمية تهب على الدنيا العربية من الجهات الاربع ، واخذت اوربا تضطرب في داخلها ، وتشعر بالارض تميد تحت اقدامها بعد استيلاء هتلر على السلطة في المانيا ، وزحف موسوليني الى الحبشة يعيد فيها سيرة روما في قرطاجة ودخول اسبانيا عهدا جديدا يناقض الديمقراطية ويهزأ بأتباعها . في تلك الفترة كانت سوريا كالعراق تغتلي بثورة لا هوادة فيها ، على الانتداب والسلطة المنتدبة ، وكانت مصر ترقب رد الفعل لدى بريطانيا وفرنسا على غزوة ايطاليا للحبشة وقد وجدت فيه منفذا الى التخلص من الاحتلال، وكانت فلسطين قدحملت السلاح ضد الانكليز والصهاينة معا .

وما اوشكت سوريا ان تستقل ، وتظفر بحقها في الحرية حتى وقفت تركيا حاملة صنارتها متأهبة للصيد في الماء الدولي العكر ، وراحت تطالب بلواء اسكندرونة ، مهددة فرنسا بالانضمام الى محور روما ــ برلين ، متواطئة مع بريطانيا على مساندتها في خططها بفلسطين ، وحينذاك وضعت القضية في يد عصبة الامم ، وهذه سلمت اللواء لقمة سائغة للاتراك ، رغما عن تقرير اللجنة الدولية، ورغما عن الاستفتاء الذي نال فيه العرب الاكثرية الساحقة ، ورغما عن القانون الدولي . وكان ذلك اخفاقا ذريعا ، استيقظ به العرب ثانية على ضعف المنظمات الدولية ، وعجزها عن احقاق حق وازهاق باطل .

كانت هذه اليقظة حافز العرب الى السعي وراء القوة العسكرية .

تلك فترة من حياة العالم (١٩٣٠ ــ ١٩٣٩) سادها تفكير نيتشه ، ولكن على تباين في الدرجات ، وتفاوت في الاهداف والاتجاهات ، واصبحت القوة هي المثل الاعلى الاوحد للافراد والجماعات ، لدى جميع الشعوب المتأثرة بالمدنية الاوروبية ، والخاضعة لنفوذها ، وتحول حب القوة الى عبادة ، وانصرف الناس عن كل ما هو خير وشريف ونبيل وانساني ، باعتبار هذه المعاني آثار ضعف في الطبيعة البشرية ، ودلالات مسكنة عميقة تتلبس بالاوهام ، وتحتجب خلف زخارف المثالية ، فهوى الحس الديمقراطي على اريكته ، واصبحت الصرامة ، ومضاء العزيمة ، والخشونة والتعالي ، وما الى ذلك من خصال وشمائل ،هي التي تستهوي الجماهير وتثير الاعجاب .

ولكن القوة ، على هذه الاشكال الجافة الصارمة ، لم تكن متيسرة الا لفئة قليلة من الشعوب والافراد ، مما خلق شعورا بالنقص لدى ابناء الاقطار الخاضعة للسيطرة الاوروبية ، وغض من قيمتها حتى في نظرها الى نفسها. ولا غرابة في ان يهيمن على العالم ذلك الجو ، في تلك الفترة ، ما دام نيتشه هو الفيلسوف ، وهتلر هو الحاكم الذي يطبق اراءه، وما دام الناس من الجهل بمنزلة يصدقون معها حكاية انقسام البشر الى ساميين ، واريين ، وحاميين!!

غير ان العرب ــ والعراق خاصة ــ كانوا هم الشعب الوحيد الذي لم يشعر بعقدة نقص تجاه اوربا وحضارتها . وكل ما سرهم في مسلك المانيا الهتلرية انها تعادي الانكليز والفرنسيين الذين خدعوا العرب في الحرب الاولى ، وتقاوم اليهود الذين طمعوا بفلسطين ، وساعدهم الانكليز على اغتصابها . بيد ان ذلك السرور لم يتجاوز حده الى التعاطف والتحالف ، كما اذاع اليهود في طول العالم الغربي وعرضه، ولا جعل من العرب فئة نازية تأخذ ما يقوله هتلر اخذ المسلمات .

وقد اوضحت الانسة فريا ستارك الكاتبة الانكليزية ، هذا المعنى بكثير من الانصاف والدقة ، اذ كتبت في كتابها « الجزيرة العربية » تقول :

« قليلا ما يعرف الناس ان العراق رفض ، منذ البدء ، ان يوافق على وضع انتدابي ، باعتبار هذا الوضع مخالفا لمطالبه في الحرية . والواقع الصريح ان العراق يقوم بعيدا عن

أوروبا ، ولذا كان اقل تأثرا من غيره ، بالحضارة الاوربية ، وهذا هو الذي صانه الى حد بعيد ، من الشعور بالنقص ، وهو الشعور الذي يفسد بقية الامم المشوبة افســـادا محزنا » (١)

لم تكن يقظة العرب على الجانب العسكري ، من بنائهم القومي اذن ، اقتداء بالنازية ، ولا تمثلا بالفاشستية ، وانما هي حركة أخذت جذورها من الصدمة التي تلقاها العرب في خسارة لواء الاسكندرون .

وعندما اندلعت نيران الحرب الثانية ، وراحت تلتـهم اقطار اوربا الوسطى والغربية واحدا تلو الاخر ، اصرت انكلترا حامية اليهود ، ومقسمة البلاد العربية ، والمستبدة بمصر والمحميات ، اصرت على استخدام الاراضي العراقية ومرافقها كافة لتنقلات جيوشها مما يتنافى مع المعـاهدة العراقية ــ البريطانية نصا وروحا ، فلم يكن امام سلطات بغداد في ذلك الزمن سوى الاحتكام الى السلاح ،ونشبت الثورة التي قادها رشيد عالي الكيلاني يومذاك ضد التعسف البريطاني ، وسماها ونستون تشرشل « فتنة » والحقيقة ان اعتبار المعاهدات قصاصات ورق ، من قبل انكلترا التي كانت تحارب المانيا من اجل هذا الاعتبار نفسه ، هو الذي دفع بالعراق الى الثورة مباشرة ، عدا عن السوابق الانكليزية المعروفة في كل بلد عربي بل في كل بلد شرقي.

اخفقت ثورة ١٩٤١ ، وهي التي لقيت تأييدا عارمـا من العرب اجمع ، لان عملاء بريطانيا ارادوا لها ان تخفق ، ثم لان القوة العسكرية العراقية لم تستطع ان تجابه القوات البريطانية ومواردها بالسلاح والذخيرة الى النهاية .

وكان بعد ذلك ان وقعت المفاجأة الكبرى في مجرى الحرب الثانية ، وهـي انقضاض النازيـين على روسـيا السوفياتية .

هذا التحول في مجرى الحرب انعش آمال الدول الغربية الاستعمارية ، وتركها تتنفس بشيء من الراحة، وسط دوي القنابل ، وهدير الطائرات ، وزمجرة الدبابات ، واخـذت الحوادث تمد وتجزر ، الى ان انجلت اخر الامر ، عن ظهور دولتين كبيرتين هما الاتحاد السوفياتي ، والولايات المتحدة وانكساف كلي لالمانيا وايطاليا، وانكساف جزئي لبريطانيا وفرنسا .

***

عندما نزلت كل من بريطانيا وفرنسا الى الدرجة الثانية او الثالثة في سلم الحياة الدولية ، عمدتا الى انتهاج الخطة التي سلكتها كل من هولندا وبلجيكا والبرتغال للابقاء على المستعمرات ، والاحتفاظ بالمصالح الاقتصادية التي حصلت عليها يوم كانتا تحتلان المنزلة الاولى في شؤون العـالم وسياسته . وخطة تلك الدول الصغرى الاستعماريـة كانت ان تؤمن للدول الكبرى مصالحها وطرق مواصلاتها وان تتحالف معها ضد كل حركة تحررية في آسيا وافريقيا شرط ان تظل هي صاحبة السيطرة والسلطان في البقـاع التي تحتلها .

هكذا .. وبهذه الطريقة شرعت هولندا تحكم اندونيسيا، والبرتغال تحكم اضعاف سكانها في الهند (غوا) وغير الهند وبلجيكا تحكم اجزاء من افريقيا .

رأت بريطانيا ان تقف من الولايات المتحـدة ، بعد نزولها الى المرتبة الثانية ذلك الموقف الذي اتخذته منهـا هولندا ، شرط ان تقدم لها اميركا العون والمساعدة ضـد الشعوب التي تجاهد للتخلص من نيرها .

وحملت فرنسا على اتخاذ موقف بلجيكا أو البرتغال على ان تتفاهما ومن يلوذ بهما من الدول ، مع الولايات المتحدة ضد الاتحاد السوفياتي.

كانت هذه العروض والمساومات على جانب كبير مـن الاغراء لدولة قضت عمرها في عزلة عن الدنيا ومشاكلهـا الاستعمارية ، مثل الولايات المتحدة ، فلم تستطع ان تقاوم، اذ القى اليهود بثقلهم كله ايضـا لاخـراج تلك الدولـة عـن عزلتهـا وجذبهـا الى جانبـهم فيمـا يرسمون ويخططون ، وترامـت اليهـا ايضـا وايضا نداءات الرجعيين والخائفين على عروشهم، والضالعين مع الاجانب ضد اوطانهم، من كل فج وواد ، تهيب بهـا الى احتلال المكانة التي فقدتها بريطانيا ، وحماية المباديء والافكار القديمة التي تعارض التطور ، وتقاوم التحرر .

واستجابت اميركا ، بشيء من التردد اول الامر، لتلك الاغراءات والنداءات والطلاوات ، ثم انساحت معها انسياحا تاما ، فتابعت اعمال الانكليز في فلسطين ، وزادت عليهـا بما يسرت لليهود من وسائل العدوان ، واعانتهم علـى

The Arab Island, By Freya Stark P. 226. Edit. 1945.

مشاركة في الكفاح العربي

أصدرت دار منيمنه للطباعة والنشر

نحو اشتراكية عربية

للدكتور كلوفيس مقصود

يطلب من :

جميع المكتبات في الاقطار العربية أو من الناشر - بيروت ص.ب ٢٢٩٦

الثمن ٣ د.د.

قريبا للمؤلف :

الواقع الحزبي في الوطن العربي

الاستمرار في الاغتصاب ، الى ان مكنتهم من البقاء بعد ان حولت وجودهم في تلك الارض الى « دولة » وان كانت غير واضحة الحدود ، غير ثابتة الاساس !

وكانت نكبة فلسطين قد اعدت بمهارة اكتسبها الغربيون من تجربتهم الاولى في لواء اسكندرونة ، فقد انهت اليهم تلك التجربة معلومات وملاحظات استثمروها على اوسع مدى ، وافادوا من معطياتها الشيء الكثير . واهم معطيات تلك التجربة ان العرب ضعفاء على الصعيد الدولي، وانهم يصخبون ويتظاهرون ويرسلون برقيات الاحتجاج الى الهيئات الدولية ، ويعتمدون على القانون والاخلاق ، ثم لا يحركون لدى الامر الواقع حين يجبههم ، ساكنا . ثم لا يلبثون ان يهدأوا ، ويخضعوا عندما تنقطع بهم الحيلة ، ويخيب الفال !

تلك هي العقلية التي كانت تسود العالم الغربي في نظرته الى العرب حين اقدم على ابشع ما عرف التاريخ من جرائم وشرد عرب فلسطين ، وسلم زمامها للصهيونية ، دون ان يخزه ضميره ، او يلتفت الى امامه .

ولكن نكبة فلسطين كانت سببا في زلزال فكري ، بعيد الغور ، اهتزت معه جميع الاسس القديمة التي كانت تقوم عليها المجتمعات العربية منذ قرون وقرون ومادت به العروش ، واضطربت النفوس ، وهلعت القلوب في ارجاء الدنيا العربية جمعاء. وجاءت في اعقابها اليقظة العربية الكبرى والاخيرة .

***

واطل الصباح على الغرب في هذه الديار ، وفجر اليقظة يوجه انواره في كل زاوية ،واذا به « سجين » ماضيه ، رهين اعماله ، وتبين للعرب انه سجين عدائه لروسيا السوفياتية ، وللصين الشعبية ، ولكل أمة تريد ان تتحرر، فلا يملك بعد اليوم ان يتابع ما بدأ به ، لا في فلسطين ، ولا في غير فلسطين . والتتمة المنطقية لتلك البدايات ان يظل فاروق او شبه فاروق سيد مصر ، وان تظل سوريا مكبلة بقيود الانتداب ، وان يظل العراق نهبا للعملاء ، وان يفرض الصلح على العرب فرضا مع اسرائيل ، وما اشبه..

في هذه اللحظة الحاسمة من تاريخ هذا الشرق انطلق جندي من جنود مصر ، شهد بأم عينه ما جرى في واقعة فلسطين الاخيرة ، من حيل وخدع واكاذيب واباطيل ، وقضى اول ما قضى على فاروق وعهده ، ثم لم يكد يستقر، حتى يمم وجهه شطر الشرق ، نحو باندونغ ، ومنها عاد الى عرينه ، فكان اول ما سعى اليه ان يضع السلاح في ايدي الجنود ، وحين اعياه نيله من الغرب كسر الطوق، واشتراه من الشرق .

وكانت هذه الصفقة فاتحة سلسلة من الاعمال، لا الاقوال اظهرت للغرب انه مخطيء في نظرته السابقة للعرب .

هنا .. وجد الغربيون انفسهم في مأزق حرج ، وشاهدوا من تأييدالجماهير العربية لسياسية الثورة المصرية ، ما قض مضجعهم ، فقد انبعث المغرب العربي في شمال افريقيا ، ومشى يحج الى استقلاله جنبا الى جنب مع المشرق ، غربي آسيا . وكانت خيبة اوربا الغربية اقسى وامر ما شهدت في تاريخ علاقاتها ببلدان الشرق الاوسط عامة ، واقطار العرب خاصة . فما العمل ؟

ـ جواب الانسان عن الحوادث المؤلمة ، حين يتحداه القدر ، ينبع دائما من ذكريات انتصاراته الماضية . ولذا ، كان جواب الغربيين عن يقظة العرب الاخيرة ، في التفريق بين مصر والبلدان العربية الاخرى ، ثم في التفريق بين الشعب المصري والرئيس جمال عبد الناصر. وهذا ما فعلوه في صراعهم مع النازية ، اذ كانوا يضعون خطا فاصلا بين هتلر كشخص ، او شخصيته والشعب الالماني!

الا ان هذا الجواب خاطيء من اساسه ، خارج عن الموضوع في تكوينه واتجاهه ، وكانت الحوادث تترى ولا تزال ، تقدم البرهان تلو البرهان على سقم الفهم الغربي ، وضلاله عن الصواب ، اذ بني سياسته على «تشبيه» تنقصه وجوه الشبه. وراح العرب في شتى ديارهم واصقاعهم يزدادون ائتلافا مع مصر كلما زادت تحررا ، ويتعلقون بالرئيس عبد الناصر كلما أمعن الغربيون في النقمة عليه وتوجيه دعاياتهم ضده ، وحبك المؤامرات على حكمه ، الى ان كان تأميم القناة ردا من الرئيس العربي على سحب العروض بتمويل السد العالي .

هنا.. انفجرت اوربا بحركة عصبية رعناء، واستخدمت «الدولة» التي انشأتها في فلسطين اداة لتفجير غضبها.

دار الاندلس تقدم

بعد روايات الحارث الاكبر الغساني ـ تاريخ غسان والنعمان
الثالث ملك العراق ـ تاريخ العراق

بلقيس ملكة اليمن

تاريخ اليمن

اعظم شخصية ظللتها الجزيرة العربية في تاريخها

جمال عربي بفتنته وروعته ....

وخلق عال تسنده كبرياء ..

وطبيعة غريبة ضيعت الكثير من المحاسن

وستقرأ في بلقيس نوعا من السياسة والدهاء والخداع

والغرام وطمعا عجيبا بالعرش والتاج

صدر حديثا

وكانت واقعة السويس التي وقفت بها اميركا موقف «المترقب» : تستغلها اذا نجح الانكليز والفرنسيون والاسرائيليون لحسابها الخاص ، وتضمد الجراح وتتلافى الاخطار وتهديء الخواطر اذا اخفقوا ، كي تستغل من بعد، ثمار التهدئة وحصاد التضميد .

وكان ان قاوم العرب ، وظاهرهم الاتحاد السوفياتي في ضد العدوان ، ووقفت الامم ، في معظمها بجانبهم ، واضطرت بريطانيا الى التراجع هي وفرنسا ، واخيرا اسرائيل التي اظهرت للدنيا ليست سوى اداة ، لغاية غير شريفة .

وافاق العرب هذه المرة من جهادهم على انتصار بعد ان كانوا يستفيقون من قبل على هزائم .. وخسائر في الميدانين : الدولي والداخلي !

*

لم تكد العاصفة تهدأ ، حتى عاد الغرب الى معزوفاته القديمة ، واوغل في تفكيره التشبيهي يتحدث عن ناصر والناصرية كما كان يتحدث من قبل عن هتلر والهتلرية ، ويبذل اقصى طاقته في تفريق العرب وضرب بعضهم ببعض واجتذاب طرف منهم ليدفع به الطرف الاخر .

ولكن عبد الناصر يحتل ، في الحقيقة ، نقطة المركز من دائرة الكرامة العربية ، هذه الكرامة التي عسر امر فهمها على الاوروبيين والامريكيين فهؤلاء لشدة اشتغالهم بعظمتهم ، بعداواتهم ، بمصالحهم ، بامجادهم السابقة والحاضرة ، بالاخطار التي تهدد سيطرتهم ، والتي اشار اليها ازفلد شبنغلر وارنولد توينبي ، اصبحوا لا يتصلون بحقائق الاوضاع في العالم الا من زاوية اضطرابهم وقلقهم، فانقطعوا بذلك عما عداهم من الناس ، انقطاعات روحيا ، افسد عليهم كل نظرة ، وشوه في ذهنهم كل فكرة ، وعطل من قلوبهم كل تعاطف وانبساط .

والكرامة العربية التي يمثلها الرئيس عبد الناصر لها منطقها الرياضي الدقيق ، كما ان لها جذورها العميقة في اليقظات التي اوجزنا حديثها في هذا البحث ، فهي التي املت عليه ، ولا تزال تملي له ، اكثر خططه السياسية ، ومناهجه الاصلاحية ، واتجاهاته الفكرية والاجتماعية .

لهذا لم يتخذ عبد الناصر في مسالكه واساليبه السياسية موقف الحاكم ، على ما يفهم الاتراك من الحاكم، ولا موقف الزعيم على ما يفهم الغربيون من الزعيم ، ولا موقف المصلح على ما يفهم العرب والهنود من الافغاني مثلا او غاندي . فجميع هذه المفاهيم لا تنطبق على الرئيس عبد الناصر .

انما الذي يصح في شأنه انه مرب للشعب ، وهو يملك مواهب المربي الشعبي، على ابلغ ما يملكها انسان في عصر معين ، لدى شعب معين . والاساس الذي يصدر عنه ،في اكثر ما يقول ويعمل ، هو حسه المرهف العظيم بكرامة امته، ورفعة شعبه ، وصفاء ذهنه في تحقيق الافكار التي ينهيها اليه حسه .

ذلك هو عبد الناصر ، في الموقف التاريخي الراهن من حياة الامة العربية وحياة العالم .

ولا ادل على صحة ما نقرر ، من الذين يقاومون عبد الناصر في داخل الاقطار العربية، ثم من الحكايات والاشياء التي يتذرع بها الاجانب الذين يقاومون عبد الناصر .

الذين يقاومونه في الداخل ، داخل الاقطار العربية اضعف الناس حسا بالكرامة على وجه عام ، وبالكرامة العربية على وجه خاص. ويستطيع القاريء أن يتأكد بنفسه من صواب هذا الامر حين يتصل باشخاص يعرف انهم ممن «يزعجهم» عبد الناصر بما حقق وابدع .

واما الاجانب فأكثرهم مضلل ، يقاومون عبد الناصر لانه يريد انشاء امبراطورية على طريقة الاسكندر او نابليون ، او لانه يكره اليهود ويعمل بوحي اللاسامية، او لانه شيوعي يناصر روسيا السوفياتية ويكفر بعظمة الغرب ، او ... الى ما أشبه من اساطير وخرافات وحكايات تافهة تشير الى قصور عقلي ، وجهل مطبق ، وانسياق جامح مع الاغراض الشخصية !

***

... وكان من نتائج استيقاظ الكرامة العربية ، على يد الرئيس عبد الناصر ، ان دبت الحماسة في النفوس ، ورجع اليها الامل بالتحرر ، ثم بالوحدة او التضامن ، فامتزج القطران : المصري والسوري في جمهورية واحدة .

وما هي الا اشهر معدودة ، حتى ثار العراق معقل الكرامة العربية على الاذلاء الحاكمين من ابنائه . وتبعه السودان بعد ذلك بقليل .

وليس لهذه الاحداث الاخيرة من تفسير ، سوى يقظة الكرامة الصحيحة ، البناءة ، الناشطة ، في نفوس العرب .

عبد اللطيف شراره

قريبا جدا :

الديوان المنتظر

عائدون !

لشاعر المأساة

يوسف الخطيب

قصائد رائعة تغني العودة الى

الارض السليبة الحبيبة

دار الآداب ــ بيروت